

تجليات اللغة الصوفية في شعر عدة بن تونس
Manifestations of Sufi Language of Adda Ben Tounes poetry

أ.د. / بكير سعيد

مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف
(الجزائر)

Saidbakir2@gmail.com

ط.د. / سعاد بورجام*

مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف
(الجزائر)

s.bouredjam@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/04/05

تاريخ الاستلام: 2025/03/15

ملخص:

تشكل اللغة في ديوان عدة بن تونس من خلال فاعلية التواصل الروحي بين الشاعر والبيئة التي تعلم فيها فن الكتابة، إذ أن الدال اللغوي موجود في النص كنظام إحيائي لمعتقدات وسياقات معرفية أثرت في فكر الشاعر وصقلت لغته، حيث استطاع انطلاقاً من نزعة الدينية وتوجهه الصوفي أن يستثمر نموذجين من اللغة الصوفية في ديوانه: " اللغة الصوفية الدينية التي تجسد انقياده لتعاليم الدين الإسلامي واشتغاله على الوعظ والإرشاد (لغة إصلاحية). واللغة الشاعرية الوجدانية التي تعبر عن الغرض الشعري المهيم على ديوانه الشعري ألا وهو رثاء شيخه أحمد بن مصطفى العلوي.

الكلمات المفتاحية: الشعر؛ التصوف؛ اللغة الصوفية؛ الإصلاح الديني.

Abstract:

The language in the poetry collection of 'Adda Ben Tounes is shaped through the dynamic spiritual communication between the poet and the environment in which he learned the writing art. The linguistic signifier exists in the text as a living system that embodies beliefs and epistemological contexts that influenced the poet's thought and refined his language. Drawing from his religious inclination and Sufi orientation, he was able to employ two models of Sufi language in his collection, Religious Sufi language, which reflects his adherence to Islamic teachings and his engagement in preaching and guidance and Poetic mystical language, which expresses the dominant poetic purpose of his collection—mourning his Sheikh, Ahmed Ben Mostefa Al-Alawi.

Keywords: Poetry ; Sufism ; Sufi Language ; Religious Recovery.

. مقدمة:

تتجسد حقيقة العمل الأدبي في رسم صورة عن المرجعية التي يستند إليها المبدع في كتاباته، والتي تحدد التوجه الشعري والعرف العقائدي الذي ينتمي إليه، بحيث تكون هذه الصورة الفنية شكلا من أشكال التواصل اللغوي الجمالي المنظم الذي يحيل إلى تعالقات نصية ضمنية بين الحاضر والماضي. ومادام الشعر يشغل على جدلية الخفاء والتجلي فإن المتلقي يحرص على استكناه المتغير اللغوي في النصوص وخصوصيتها. بمعنى أن الخوض في مساءلة اللغة هو اشتغال على خلق واقع نصي جديد، يجدد القصيدة ويجعل المعنى صفة لغوية ظاهرة منبثقة من تفسيرات تحدد الإطار المرجعي لبنية النظام اللغوي في النص .

وعليه، كان النص الشعري الصوفي إنتاج يندرج في إطار متعدد الأغراض وفق مستويات وجدانية شعرية تحقق آفاق يتقاطع فيها الجانب الديني مع الجانب الروحي الحالم، بمعنى أن التصوف في الشعر هو توجه يوحى بحالة انعزال الشاعر عن العالم الخارجي والجوانب المادية، وارتباطه بالوعي الداخلي، وعملية الوعظ واستشراق عالمه المثالي الخاص. ذلك أنّ بناء الحدث في التجربة الصوفية قائم على فعل الخلق وإلحاق النفس بعالم جديد يجردها من الأثر السلبي لمشاكل العصر.

لقد عرف الشعر الجزائري التصوف كأثر فني يتجاوز تركيبة القصيدة العربية بإضافة الإدراك العرفاني الديني الإصلاحي، حيث ظهر التيار الصوفي في الشعر متوازيا مع التيار الإصلاحي. فسلك الشاعر الصوفي الجزائري مسلك المصلح التربوي لمعالجة الفكر الجزائري الذي هجّن بفعل الاستعمار، فكانت الغاية من التصوف في بداية أمره التحرر من قيود الاستعمار وتربية النفوس على الانقياد لتعاليم الدين الإسلامي، وقد مثل هذا التيار :عفيف الدين التلمساني، محمد البوزيدي، لخضر بن خلوف، أحمد بن مصطفى العلاوي، عدة بن تونس .. وغيرهم كثير .ثم، ومع بداية موجة الحداثة والمعاصرة اشتغل الشعراء الجزائريين على التصوف كألية للتعالي وتجاوز الواقع اليومي واعتناق الحقيقة المطلقة كنوع من الإشباع النفسي لما فقده الانسان وما يتعرض له من قهر .

ضمن سياق دراسة الشعر الصوفي الجزائري ,جاءت دراستنا لشعر عدة بن تونس كمحاولة لاستظهار البنية اللغوية في ديوان " آيات المحبين في مقامات العارفين" واستجلاء المخزون المعرفي الذي توحى به أشعار عدة بن تونس، وفق ألية التأويل لتفسير رؤيته وإعادة بناء المعنى والكشف عن القيمة الجمالية لنصوصه، بالإضافة إلى البحث عن المقاصد الكامنة خلف صياغته اللغوية الدينية الوجدانية، وتعدد أغراضه الشعرية. وذلك انطلاقا من الإجابة عن الإشكاليات الآتية :

فيم تكمن خصوصية اللغة الصوفية في ديوان عدة بن تونس ؟

ماهي علاقة التصوف بالإصلاح الديني في الشعر الجزائري ؟

ماهي سمات الشعر الصوفي عند عدة بن تونس ؟

1) التصوف والإصلاح الديني في الشعر الجزائري:

تأثر الأدب الجزائري بالجوانب المادية والثقافية التي مرت بها البلاد أثناء الاستعمار الفرنسي، فكان النص الأدبي الفضاء الفني الذي يصور التجارب التي عاشها المبدع الجزائري وهو يحاول الخلاص من هيمنة الفكر الاستعماري، "ومدام ميدان الفن: هو ذاته ميدان سيطرة الإنسان الواعية على عالم المواد والحركات التي ينبغي على الإنسان أن يستوطنه، وعلى عالم الدوافع الباطنية والعمليات الآلية التي تؤلف كيانه الباطن"¹، فإن الشعر كان تأسيساً لنهضة فكرية تحمل مبادئ التغيير والثقيف، كان فيها النص استجابة لرغبة الشعب الجزائري في إحياء وبعث معالم الهوية الجزائرية، إذ تعد الكتابة الشعرية ذات النزعة الإصلاحية والصوفية مظهراً من مظاهر الإصلاح الثقافي في الجزائر.

أ) التصوف في الشعر الجزائري:

يدل التصوف في معناه اللغوي العام على طريقة خاصة في العبادة؛ إشارة إلى نوع لباس المتصوفة فيقال: تصوف أي لبس الصوف؛ يدل على الحكمة؛ كما يعتبر لقب لمجموعة من الناس اختاروا الزهد في الحياة والمبالغة في عبادة الله، يقول إبراهيم بن أحمد: وجملته ما يمكن حوصلته من هذه المقاربات اللغوية أن "التصوف" لفظ جامد غير مشتق، أو أنه مشتق من الصفا أو الصفو، أو أنه مأخوذ من الصوف، أو أنه نسبة لأهل الصفة أو الصف الأول من الصلاة، كذلك مشتق من الكلمة اليونانية "صوفيا. أو صوفوس" ² sophos sophia. أما التصوف والصوفية في التعريف الاصطلاحي فهو توجه فكري ديني ينبثق من جملة تصورات عرفانية تأملية روحية، تكون الغاية من اعتمادها كطريقة في التعبير هي التحرر من قيود الفكر المادي والعبودية الواقعية والتماهي مع المطلق، "فالتصوف في حقيقته إثارة وتضحية، هو نزوع فطري إلى الكمال الإنساني والتسامي والمعرفة".³ وقد انتشر هذا الفكر في الثقافة العربية والغربية بفعل الزوايا الدينية و المجالس الفلسفية والطرق الصوفية، بحيث أصبح هذا الفكر كالعلم يرثه المريدون عن مشايخهم ولا يقال عن الشخص أنه صوفي إلا إذا تدرب على يد شيخ من شيوخ الصوفية، يقول عدة بن تونس في هذا المقام:

لا يدرك معنى الحقيقة مهملاً إلا من له شيخ من أهل الطريقة"⁴

اتسم المتصوفة بصفة الإخلاص والحرية والتغني بالحب الإلهي، فكانت تجاربهم تمثل بنية أعمالهم الأدبية الصوفية التي تتجلى فيها كراماتهم وصفاء العالم وحقيقته، إذ أن الأدب والشعر خاصة يعد مقصدهم الأول في التعبير عن مشاعرهم وروحانياتهم، "فالأدب الصوفي لا يقوم على الرغبة أو الرهبة، بل قصده الصوفية لذاته تلبية لنزعة حب التعبير عن خلجات النفس، فلم يقصدوا به عظيماً، ولم يتزلفوا به إلى كبير، وهو لذلك أدب يقوم على دعامة متينة من الإخلاص والصدق".⁵ وبهذا يكون النص الشعري الصوفي تبصر في كنه التناقضات التي يعيشها الإنسان ومحاولة ذاتية في خلق ركن رؤيوي تأوي إليه النفس في انتقالها من العيشة إلى المثالية.

لقد استثمر الشاعر الجزائري نزعتَه الصوفية في بناء النص كنوع من المقاومة بالإضافة إلى عدة أسباب تشكل إرهابات الشعر الصوفي في الجزائر منها: الرغبة في الرجوع إلى الأصول و تأسيس وجود هوياتي إسلامي، تأخر الشعراء عن مواكبة ركب الحضارة والتغيرات الثقافية بفعل الانشغال بالقضية الجزائرية، سيطرة الفكر المحافظ على الوعي الداخلي للشعب واقتصار الكتابة على نمط الإحياء فكانت لغة الشعر تقريرية وصفية، مجردة من التخيل، فكان الإبداع والوعظ وغيرها من الأغراض الشعرية التقليدية سمة إبداعية غالبية على النص الشعري الجزائري المحافظ .

وبعد تداخل فعلي المعاصرة و الكتابة الشعرية , ظهر نوع من الإبداع الصوفي الرؤيوي الحالم كنتظير حياة نص شعري جديد سمته الرؤيا الكشفية، يعبر عن الواقع المأمول ويقظة الشاعر وإدراكه لفاعلية الفن في التعامل مع تحولات القيم الحضارية والشعورية والتعبير عنها، فيكون النص الأدبي كما يقول جون كوهن : وليس الشعر والنثر إلا مظهرًا تقابليًا يوازي اليقظة والحلم، حيث إن " هناك نوعان من المنطق يتواجهان، ففي مقابلة منطق "الاختلاف " الذي تبني عليه اللغة النثرية، والوعي بالعالم الذي تتكفل بالتعبير عنه، يوجد منطق " التوحد " الذي يحكم نمطًا آخر من الوعي، وهو النمط الذي يجده الليل في أحلامه، وتجده القصيدة في كلماتها"⁶.

تمثل هذا التيار الشعري الصوفي الوجداني في كتابات كل من عبد الله العشي، عثمان لوصيف، عبد الله حمادي، ياسين بن عبيد وغيرهم.

(ب) النزعة الإصلاحية في الشعر الجزائري:

الإصلاح هو فكرة واعية خاضعة لتركيبية من المفاهيم والمبادئ السامية تنمي الشعور بضرورة التطوير والتمسك بمقومات الأمة الإسلامية، كما انه خطوة منهجية لإعادة بناء القيم وفق عدة مستويات، وقد عرفه ابن تيمية (728هـ) بقوله: هو صلاح البلاد والعباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والمعاد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت الأمة خير أمة أخرجت للناس.⁷

ومن ثم، فقد ارتبط هذا المعنى بالشعر في فترة الإصلاح الجزائري، إذ ركز الشعراء على مبدأ تنمية الوعي وإصلاح ما أفسده الاستعمار، وبذلك أظهر الشاعر دور الكتابة في رفض التهجين والتغريب والانحطاط الأخلاقي الناتج عن سياسية المستعمر، وبما أن الشاعر كما يقول العقاد: " يعبر عن الخواج والأحاسيس وعرف الشعر بأنه التعبير الجميل عن الشعور الصادق "⁸. فإن الشاعر الجزائري استخدم الإبداع كوسيلة للفت انتباه القارئ وإثارة مشاعره عن طريق الدعوة الدينية وتقوية المعتقد الإسلامي والتذكير بمآثر العرب القدامى وخصالهم ونخوتهم واعتزازهم بالقومية العربية.

بدأت حركة الإصلاح مع جمعية العلماء المسلمين فكان عبد الحميد بن باديس من أوائل دعاة الإصلاح ومعه البشير الإبراهيمي، ثم انتشرت نزعة الإصلاح بين الأدباء والشعراء فظهرت في قصائد كل من محمد العيد آل خليفة، محمد السعيد الزاهري، حمزة بوكوشة أحمد سحنون، أبو القاسم سعد الله، مفدي زكريا ... و غيرهم .

فكان هذا التوجه الشعري الإصلاحي معادل موضوعي لثقافة التغيير والتجديد التي كانت شعار كل النخب الجزائرية.

(2) اللغة الصوفية في الشعر:

تنشأ اللغة ضمن سياق جدلية الدال والمدلول، ذلك الجدل الذي يرمي إلى تبلور نص جمالي يقوم على المغايرة والاختلاف، فالمستوى اللغوي (الرمزي أو الغير رمزي) يعد الدليل المفاهيمي في النص، إذ يتحدد الموضوع العام وفضاءه المكاني والزمني من خلال اللغة، وعليه يمكن اعتبار اللغة مبعث الحدث و التصور العام في أي عمل أدبي.

"والواقع أننا إذا تأملنا أدب الصوفية على حد قول علي الخطيب" شعرا ونثرا- وجدنا رمزا غريبا، ونمطا عجبيا وبعدا عن التصريح، وإيثار للتلويح، واعتماد على الإشارة ودرجات بعيدة بين المعاني الحقيقة لا يكاد يفهمها فاهم، ولا يصل إلى جوهرها عالم أو حالم..⁹

فاللغة الصوفية تتجاوز اللغة العادية واللغة الشعرية في كونها تخلق نوعا من الكتابة يقوم على الإشارة والرمز المتماهي مع المعنى الغيبي، تستقي ألفاظها من حقول معرفية وعلمية متنوعة، وبفعل هذا النسيج اللغوي للنص الصوفي كان تلقي اللغة الصوفية وفق مستويين: "الغموض والوضوح"، "الظاهر والباطن"، حيث أن القارئ العادي يرى أنها لغة تتسم بالغموض، أما بالنسبة للمتصوف فهي لغة سامية وعالم من الأنوار والحوارات الروحية. ولا يتجاوز القارئ المقاصد السطحية المتجلية إلا إذا كان يتمتع بروح التأويل التأملية الذي يمكنه من فك شفرات الرموز ومكاشفة الأبعاد الروحية والنفسية الكامنة وراء تلك اللغة، فالرمزية الصوفية تجمع بين الرمزية الأسلوبية والرمزية الموضوعية التي قد يكون من أسبابها الموضوع نفسه أو استعمال الأقيسة المنطقية والمقاييس الفلسفية، والأولى يمكن أن تعرف بأنها الإغراق في أوجه البديع والبيان، خاصة الاستعارة والمجاز والتمثيل والتورية"¹⁰.

أما الرمزية الموضوعية فهي الإطار المرجعي الذي يقدم المعطيات الصوفية من خلال صور فنية رمزية تقوم على الانحراف في المعنى، ومن بين الرموز التي تحيل القارئ إلى موضوع القصيدة الصوفية، نجد رمز المرأة والحبيبة، رمز الخمرة وغيرها، فهذه المعطيات تظهر أن النص يندرج ضمن واحد من الأغراض الشعرية المعروفة كالشعر الغزلي أو شعر المجنون أو الشعر الديني، أو الحكمة والزهد...، ولكنه في الحقيقة ينحرف عن بنية التصنيف الأدبي بفعل الاستعمال الصوفي للغة، لينتقل النص إلى مرحلة من التشكيل اللغوي تهندس للوجود الخفي وتستجلي المطلق الغيبي عبر نسق الرؤيا التي تعد وسيط شعري بين الخيالي والواقعي في تجربة الشاعر الصوفي، فالرؤيا "كما يقول جلال فاروق الشريف هي: جوهر موقف الشاعر من العالم كإنسان فنان، وبمقدار ما تتوفر لديه هذه الرؤية وتتكامل في فئة يرتفع الشاعر ليعبر عن الإنسان المعاصر أي الإنسان في شروطه التاريخية الراهنة"¹¹، لتصبح بذلك الحبيبة هي ذات الإله والسكر هو حالة التوحد مع الله... ومن ثم، فإن تداخل الرؤيا الصوفية مع الدال اللغوي الشعري هي إحالة إلى تعالق عناصر العملية الإبداعية مع مقومات التجربة الصوفية عند الشاعر والمتصوف في موضوع يجسد سيرورة الذات الإنسانية في بحثها عن الواقع الأسمى والخلاص.

(3) التجربة الشعرية الصوفية عند عدة بن تونس :

انتهج عدة بن تونس نهج الطريقة العلاوية في التصوف، إذا يعد واحد من تلاميذ الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغامي، جعل معظم أعماله النثرية والشعرية في ذكر خصال شيخه العلاوي، والدعوة إلى التمسك بتعاليم الدين الإسلامي .

يندرج شعر عدة بن تونس ضمن الكتابات الدينية الإصلاحية، اعتمد الرؤية الصوفية ابتغاء تبرير واقع الشاعر المتصوف وهو ينحو نحو الفضيلة، إذ أن مجاراته كصوفي لركب الإبداع الأدبي إنما هو رصد لجملة النتائج التي نسجها وهو يعد نفسه للانضمام لزمرة الصالحين، بمعنى أن فعل الكتابة عند الشاعر تمثيل لواقع وتصحيح لفكر .يقول في واحدة من قصائده:

"الله يبعث في كل قرن رجلا به الدين ينجلي من وصمة الصغر"¹²

يوضح الشاعر مكانة شيخ الصوفية في المجتمع، وهذا التخصيص مفاده فهم العمل الواعي الذي يقوم به المتصوفة في الزوايا والمساجد، كما أنه توضيح لعلاقة الطريقة الصوفية بتعاليم الدين وثوابت الأمة العربية، فالتصوف حسب عدة بن تونس هو فهم للمعنى الحقيقي للدين .

تطرح نصوص الشاعر إضاءات ذهنية تعطي للمبدع مشروعية العمل على تطوير الوعي والاهتمام بإيجاد حل لذلك الانقسام الفكري الذي جاء نتيجة جملة من الإشكاليات واجهت المجتمع العربي و- الجزائري خاصة- بعدما حاول الاستعمار طمس معالم هويته، فكانت أشعاره التفاتة إلى إحياء الدين و التراث العربي على مستوى الشكل والمضمون، حيث جاءت قصائده على نهج القصيدة العربية القديمة ويتجاوزها أحيانا للكتابة بالشعر الملحون سيرا على نهج الشعر الأندلسي الذي يتناسب والشطح الصوفي والتغني الوجداني بالعشق الروحي .أما مضامينه فتتنوع بتنوع المقامات والأحوال التي صورها، ولكنها لم تخرج عن الوعظ والمدح والثناء .

(4) خصوصية اللغة الصوفية في ديوان آيات المحبين:

أقام الشاعر عدة بن تونس لغته مستندا إلى " الأثر"، بمعنى أنه نظّم القصيدة وفق تركيبة لغوية تتناسب وغاية الإبلاغ والإصلاح التي كان يسعى إليها، فجاءت لغته منفتحة على النصوص القرآنية، اللهجة العامية، واللغة الشعرية لأن رسالته موجهة لجميع طبقات المجتمع. وفي الوقت الذي كان شعره تسجيلا وتصويرا لواقعه النفسي والحسي ظل الطابع الديني غالب على مجمل ألفاظه وتعبيره بالإضافة إلى توظيف لغة الحوار والوصف والسرد، من هذا الأسلوب اللغوي، هذه الأبيات التي يحكي فيها عن لحظة سماعهم لخبر وفاة شيخه أحمد بن مصطفى العلاوي ودفنه.

"سويعة يا لها ثواني لا ذعة أشد من الجمر تكاد من سقر
دموع سائلة أفئدة مزقت عقول ذاهلة من شدة الخبر

تنادت خلته من كل ناحية
فجاءت لدفنه تمشي على قدر
صبيحة تركت في القلب شعلته
فبات من بعدها يغفو على حذر
ليوم من أيام الزمان تشهده
طوائف من دور وخيام الشعر" ¹³

إن الحالة النفسية هي التي حركت قلم الشاعر دون تكلف أو مبالغة في التعبير، فقدم جزئية من واقعة حقيقية عاشها هو وكل رفقاء الشيخ العلاوي، ثم يضيف إلى هذا الوصف القصصي صورة أخرى يظهر فيها الحوار، يقول :

"رأيتـه في المنـام
قلـت لـه يا غـمـام
قـال بـهـذا الـلفـظ
رأيتـك بـلحـظـي
في أحسن ما يرام
هل لنا منكم سند
ففي اللوح الخفوظ
وأمره لا يـرد" ¹⁴

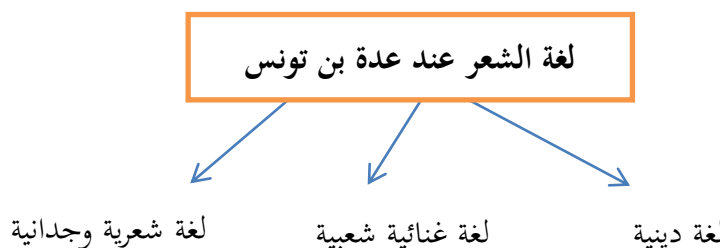
لقد أظهر الشاعر عدة بن تونس بشكل واضح تفاعله مع توظيف القص في رسم صورة فنية بلغة إخبارية، يخبرنا بها عن منزلة العلاوي في قلبه.

هذا، ويتجاوز الشاعر الواقعية والقص إلى الكتابة البلاغية حيث يستخدم المصطلحات الطبيعية كصور حسية للتعبير عن عواطفه اتجاه العلاوي. يقول :

"هو الشمس والأقمار
هو الأرض والبحار
فالكون من أصله
ظاهر بنوره
هو الليل والنهار
هو الدهر قد ورد
محمو بذاته
شبهه ظل ممدد" ¹⁵

مقام التشبيه هنا هو انتقال من التعبير المألوف إلى الصورة الشعرية بطريقة تجعل القارئ يتعرف على الشيخ العلاوي عن طريق الخيال.

قد نلاحظ في قصائد عدة بن تونس وظيفة شعرية محددة تبرز مدى تأثره بالعلاوي، وهي نظرة تجعل عمله الأدبي تصور في تشابك فيه المشاعر والأحلام، ومن ثم، فإن اعتبار ديوانه مزيج من التفكير الذاتي الوجداني والتفكير الديني الإصلاحية معناه النظر إليه على أنه منظومة من العلاقات اللغوية الفنية المتداخلة، يمكن التفصيل فيها على النحو الآتي:



(أ) اللغة الدينية:

تتمثل اللغة الدينية في القصيدة الشعرية في شكل وسائط تعبيرية عن تعاليم الدين الإسلامي، والتذكير بمقاصد الشرع وفق طرح مثبت بكلام الله سبحانه وتعالى، وقد استثمرها عدة بن تونس في عدة مقامات شعرية بعضها في الوعظ والإرشاد والحرص على العمل الصالح من أجل الفوز برضا الله ودخول الجنة وبعضها للتذكير باستشعار بوجود الله.

تنبع خصائص اللغة الدينية من تلك النصوص والاقتراسات القرآنية التي وظفها الشاعر تأكيداً على أنه صوفي متعلق بالدين وحافظ للقران الكريم، يستثمر القرآن وغايته الإبلاغ والإعلام، ومن نماذج ما ظهر في قصائده الأمثلة الآتية :

يقول الشاعر:

"أذن في الناس يا صاح وارفع الصوت عاليا
قل حي على الفلاح هلم قومي إلينا"¹⁶

فقوله: "أذن في الناس" مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (سورة الحج، آية 27)
يقول الشاعر :

"تلك الأمثال نضربها للناس والحق واضح جلي مفهوم"¹⁷

مقتبس من قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمَثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر الآية 21)

يقول الشاعر :

" أينما تولوا فثم ما يوحى للعبد مما قد قيل فيه الأشد "¹⁸

و يقول أيضا:

" تأمل رعاك الله أينما تولوا فثم وجه الله حقا بلا مزية "¹⁹

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية 115)

يقول الشاعر:

" قربتني منه من بعد الدلال نادى مني في وصح وصالي

نداء خفيا من غير مقال سقتني حمية من محض النوال" ²⁰

هذه الأبيات بها بعض المعاني من سورة مريم : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (سورة مريم آية 3)

يقول الشاعر:

" أعوذ برب الناس من شر ما خلق ومن شر غاسق ماله من مدافع" ²¹

مقتبس من سورة الناس وسورة الفلق: في صدر البيت: الجملة الأولى مقتبسة من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (سورة الناس ، آية 1)، وعجز البيت من سورة الفلق قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ

شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) ﴾

تتوالى المعاني الدينية بروابط متعددة، وذلك لتسليط الضوء على جوانب مختلفة من الأفعال التي توجه الأهواء للطريق الصحيح. يقول الشاعر داعيا الله بأسمائه الحسنى (الرحيم، الغفور، الكريم) أن يغفر له ويختم عمره برضاه :

"يا رحيمًا برحمتك أغثنا يا كريمًا ما مثله كرماء

يا غفورًا فاغفر فإنك عفو فاعف عنا فالعفو منك صفاء

وفقنا أجزنا من سوء الطواري واختم لنا عمرا مداه رضاه" ²²

وفي أبيات شعرية أخرى يتخذ شخصية الواعظ والناصح، فيوصي طالب رضا الله بالصبر والثبات فيقول:

"يا طالب الله بادر واغتنم وقتنا ثمينًا

فاصطبر خلي وصابر وارض بالذي رضينا

عساها تحلوا المرائر فتحظي بما حظينا

فذاكر الله وذاكر ذكر قوم عارفيننا" ²³

(ب) اللغة الشعرية الوجدانية:

تقيم اللغة في النص الصوفي جسر تلاقي بين الشعرية والصوفية، من خلال وعي الكاتب بإمكانية جعل الخطاب الشعري وسيط لغوي رمزي يحمل مخزون روحي بألفاظ وتعابير شعرية، تأكيداً على شعرية التجربة الصوفية .

يقول الشاعر عدة بن تونس مستثمرا بعض ألفاظ شعر الفروسية :

"ألف الله سيفي والهاء مطيبي واللام بلام يظن زمامي بقبضتي

براقي إذا شئت إسراء إلى المني ومعراجي إن رمت الصعود لسدرة" ²⁴

إن طبيعة الحياة الصوفية الذاتية جعلت الشاعر يرى نفسه في مقام الفارس الذي يجاهد نفسه وملذات الحياة بحكمة وقوة للراقي الروحي وتعزيز القيم والوصول إلى العالم النوراني .
وفي مقام الإشادة بمناقب شيخه العلاوي يستند إلى شعر الفخر، اعتزازاً وتباهياً بنسب شيخه وإظهار كراماته. يقول:

"عوارفه الغر ما لها من شبه فأكرم بها شفياء من علة النحر
فكم به حسنت نفس قد بغى بها هواها فأصبحت صفوا بعد كدر
رعا الله تلكم الخلال ما حييت في الناس شارقة من شمس وقمر" ²⁵

أما مستوى اللغة الوجدانية فتحده النصوص الغزلية التي تتجلى في ديوان عدة بن تونس كشكل من أشكال الإغراق العاطفي الذي يعبر عن معاني الحنين والاشتياق لشيخه العلاوي، يقول :

"أنا العاشق المهدد بجفاء الراحلينا والحب مني لا ينفذ لم أزل فيه رهينا
لست أنساك يا أحمد وإن طال العهد فالقلب بك معربد زاده الشوق حيننا
نيران الشوق لا تخمد لقد رضيتها دينا هي روعي بها أحمد حياتي في العالمينا" ²⁶

إنّ تلازم الرثاء والمدح في ديوان الشاعر كان تصوير خلوة الشاعر بحزنه وإحياء ذكرى الشيخ العلاوي والتساؤل عن مصير الطريقة الصوفية العلاوية ومن يتولى نشر فكرهم .يقول في هذا المقام :

"مات العلاوي فمن للدين ينصره مات العلاوي فمن للأثنى والذكر
مات العلاوي فمن للناس يرشدهم إلى الطريق المثلى بالحال والعبر" ²⁷

إذن، فحقيقة هذا النوع من الكتابة هو الانفعال كمنطلق لتجلي الحقيقة الإلهية، ونشر الحس الصوفي الحافل بالرجاء والالتزام وفيض المحبة . أما قصائد الرثاء، فقد اختلطت بالفلسفة وبالحكم والتأملات والزهد، لتصبح دروساً أخلاقية تذكر الإنسان بالقدر المحتوم وتدعوه للعمل الصالح قبل أن يضمه التراب" ²⁸ .

وسعى للتأكيد على حضور البعد الرمزي في ديوان عدة بن تونس، نشير إلى واحد من الرموز الذي تجلت معانيه في معظم أبيات الديوان:

رمز الحمرة :

يتخذ رمز الحمرة معاني التجلي والكشف والارتقاء الروحي والتوحد، إذ يعد عند أهل التصوف وسيلة للفناء والتعالي عن الوجود للقاء الله. يقول الشاعر:

"خمرنا خمر حلال يا فتى ولكنّه ليس بالمباح
لا يذوقه إلا من قد فنى عن الكون وعن كل الأشباح

حتى لا يرى حيثما بصر إلا وجهه الرحمان يا صاح²⁹
حالة السكر هي طقس روحي مجازي ناتج عن تذوق الأسرار العرفانية والأحاديث الصوفية التي ينكشف
بها الغيب أمام الصوفي، وهو يناجي ربه. يقول الشاعر :

"عربـدي محبـوي
أنا السـاقي المـبين
أنا صـاحب التلقـين
لإسـم الله المـفـرد³⁰

ثم يصف هذا النوع من الخمر الذي يشربه قائلا:

"خميرة في القـدح المـعلى
أشهى من الشـهد ذوقها أحلى
يديرها ساق بها تسلى
قام بنشرها حق القيام³¹

(ج) لغة الموشحات العامية :

تبنى عدة بن تونس كغيره من الشعراء الجزائريين المتأثرين بالثقافة الأندلسية نمط الكتابة الشعبية الحرة، التي
تخرج عن إطار تقاليد القصيدة العربية، ذلك نتيجة اهتمام الشاعر بالتأليف والنظم لعامة الناس، فكانت بعض
قصائده قريبة من بنية الموشح الملحون.

ولما نظم الشاعر قصائد باللغة العامية كان يقصد تحرير المعنى من قيود القواعد الشعرية، فالضرورة الشعرية فرضت
عليه " الخروج على القاعدة النحوية والصرفية، في لإقامة الوزن، وتسوية القافية .³²
يظهر هذا الازدواج الفني واللغوي في هذه القصيدة التي يقول فيها الشاعر :

"مال الحبيب راه اجفاني
تاج الأقطاب سيدي أحمد يا لاخوان
من حبو اسكن اكناي
ظنيت فيه مولاي غالي الشأن
عندو عزيز ما ينساني

لله يا إمام أهل الله بركاك من الجفا يا سيدي
إذا ذنب يا غوث الله أنا ضعيف خذ بيدي
أجيني انشوفك لله راني غريب باقي وحدي³³

تجسد هذه الأبيات جمالية الانحراف، حيث تخللتها الألفاظ العامية كضرب من التغيير، وبعث الشعور بذوق صوفي شعبي يتجرد فيه الشاعر من الخطاب الرسمي إلى التصوير الصادق الذي ينطلق من التجربة اليومية وينقلها كما هي دون تنميق .

يقول الشاعر وهو يصور حالة الصوفي الهائم بتريد مناقب شيخه :

"يا لائمي كف الملام راني بحبي سـالي
العلاوي بدر التمام ما نـشـق غـير والي
يا سعدك تـفـطن من المنام تـفـلـح واتـكـون اـجـالي
من لا يفهم هذا الكلام هـايم ما مثـل خـالي"³⁴

يظهر الشاعر ببلاغة شعرية شعور المهموم والبعيد عن رفيقه في طريق التصوف .

خاتمة :

إن آخر ما نختم هو القول بأن :

- الشاعر عدة بن تونس ينتمي إلى صنف الشعراء الصوفيين المحافظين، فكره فكر تقليدي حافظ على المعتقد الديني السني الذي تبني عليه الطريقة الصوفية العلاوية، وعلى أصول القصيدة العربية لفظا ومعنا .
- لغة عدة بن تونس أظهرت مستوى فكري واعي بفاعلية أسلوب الحكمة والزهد والوعظ في تشكيل بنية النص الصوفي.
- لغته كانت أقرب إلى الوضوح منها إلى التعقيد لأنه اعتمد التشبيه والوصف القصصي والصدق العاطفي.
- تتمظهر جمالية اللغة الصوفية في ديوان "آيات المحبين في مقامات العارفين" في نموذج الأبيات التي نسجها على منوال الموشح الأندلسي، حيث جمعت ما بين اللغة العامية والتعابير الشعرية والغنائية والمعاني الصوفية .
- تجلّى الرمز في ديوان عدة بن تونس (رمز الخمرة والحبيبة) في شكل إشارة إلى تأملات وجدانية تصور رحلة الصوفي الغيبية .

الهوامش:

¹ حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، دط ، منشورات دار الأديب، وهران ، الجزائر : 2007 ، ص194

- ² إبراهيم بن أحمد، المدرسة الصوفية التونسية، مقومات المنهج الصوفي عند الشيخ محمد المدني، ط1، مجمع الأطرش، تونس : 2019، ص20.
- ³ علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دط، دار المعارف، القاهرة : 1404 هـ، ص11.
- ⁴ عدة بن تونس، آيات المحبين في مقامات العارفين، ط3، المكتبة الدينية للطريقة العلوية، مستغانم- الجزائر: دت، ص33.
- ⁵ عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر: 1954، ص6.
- ⁶ جيون كوين، اللغة العليا، النظرية الشعرية، تر: أحمد درويش، دط، المجلس الأعلى للثقافة: 1995، ص6.
- ⁷ إبراهيم لقان، الشعر الجزائري الحديث ورسالة الإصلاح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج:08، ع2019، 01، ص2.
- ⁸ أبو اليزيد الشرقاوي، الأدب العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة: 2014، ص37.
- ⁹ ينظر، علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، المرجع السابق، ص11.
- ¹⁰ علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي، المرجع نفسه، ص13.
- ¹¹ عمار زعموش، النقد الأدبي المعاصر في الجزائر قضاياها واتجاهاته، دط، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2001، ص14/15.
- ¹² الديوان، ص6.
- ¹³ الديوان، ص7.
- ¹⁴ الديوان، ص22.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص23.
- ¹⁶ الديوان ص20.
- ¹⁷ الديوان، ص18.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص23.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص33.
- ²⁰ الديوان، ص29.
- ²¹ المصدر نفسه، ص37.
- ²² المصدر نفسه، ص10.
- ²³ المصدر نفسه، ص16/15.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص33.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص7.
- ²⁶ الديوان، ص8.
- ²⁷ الديوان، ص7/6.
- ²⁸ سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، دط، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان: دت، ص8.
- ²⁹ الديوان، ص58.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص24.

³¹ المصدر نفسه، ص13.

³² محمد حماسة عبد اللطيف، لغة الشعر ، دراسة في الضرورة الشعرية ، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر: 1996، ص10.

³³ المصدر نفسه، ص45.

³⁴ الديوان، ص12.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، برواية ورش.

المصادر :

عدة بن تونس ، آيات المحبين في مقامات العارفين، ط3 ، المكتبة الدينية للطريقة العلاوية، مستغانم- الجزائر: دت .

المراجع :

1. محمد حماسة عبد اللطيف، لغة الشعر، دراسة في الضرورة الشعرية، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر: 1996.

2. سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، دط، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، دت.

3. عمار زعموش، النقد الأدبي المعاصر في الجزائر قضاياه واتجاهاته، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر:

2001 .

4. أبو اليزيد الشرقاوي، الأدب العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة: 2014.

5. إبراهيم لقان، الشعر الجزائري الحديث ورسالة الإصلاح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج: 08، ع01،

2019.

6. جون كوين، اللغة العليا، النظرية الشعرية، تر: أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة: 1995.

7. حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، دط، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر : 2007 .

8. إبراهيم بن أحمد، المدرسة الصوفية التونسية، مقومات المنهج الصوفي عند الشيخ محمد المدني، ط1، مجمع الأطرش،

تونس: 2019.

9. علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دط، دار المعارف، القاهرة: 1404 هـ .

10. عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مكتبة الأنجلو

المصرية، مصر: 1954.